الشاهد النحوي بين المعيار اللغوي والذوق البلاغي

(شعر امرئ القيس نموذجا)

د. علي بن خليفة بن علي السلطان

أستاذ البلاغة والنقد المساعد

بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بالأحساء

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

رئيس قسم اللغة العربية سابقا

ملخص الورقة:

جمع هذا البحث ما تفرق من أقوال العلماء حول بيتي امرئ القيس (فَلَو أَنَّ ما أَسعى لِأَدنى مَعيشَةٍ... كَفاني، وَلَمْ أَطْلُبْ، قَليلٌ مِنَ المالِ.. وَلَكِنَّما أَسعى لِمَجدٍ مُؤَثَّلٍ... وَقَد يُدرِكُ المَجدَ المُؤَثَّلَ أَمثالي) كشاهد نحوي، ثم ناقش ورجح، وكشف عن بعض الجوانب البلاغية المشرقة في أحضان دلالات التراكيب، بعد التحليل والوصف معتمدا على نظرتين (معيارية لغوية، وذوقية بلاغية)، بعد التعريف بهما، معتنيا في طرحه بالمقصود الأول في الدرس البلاغي؛ ألا وهو الكشف عن المعاني الثانية، مبرزا أهمية الإلمام بمعاني النحو، ومؤكدا على أنه لا يمكن الاستغناء عن النظرة المعيارية(نحوية أو بلاغية ...إلخ) بحال من الأحوال، حتى وإن رُجِّحت كفّةُ الطبع والذوق.

وقد انتظمت هذه الورقة في مقدمة؛ ذكر بها أسباب الاختيار، والخطة، والمنهج، ومطلبين؛ الأول: بُيِّن فيه المقصود بالمعيار اللغوي، ثم الذوق البلاغي. والثاني خُصّ لدراسة الشاهد النحوي. وأتبعا بخاتمة تضمنت أبرز ما تضمنته موضوعا ونتيجة؛ فقد ثبت من واقع البحث قوة الترابط العضوي بين المعنى والتركيب والإعراب، وفي أكناف ذلك نشطت البلاغة بشقيها المعياري والذوقي، تحقيقا لمقاصد الكلام، وتبين أن البيتين يضمان الكثير من فنون البلاغة؛ ومن ذلك: جودة المعنى، والانسجام والإطناب بالاعتراض على قول، والحذف، والإيجاز، والطباق المعنوي أو الخفي، وطباق سلب، والإبهام والتفسير على قول، والإظهار في موطن الإضمار، والتوكيد، والجناس.

مقدمة:

الحمد لله الذي جعل اللسان على القلوب دليلا، وخصنا بأشرف لسان، بلغة القرآن، فكنا به بين العالمين أهدى سبيلا، والصلاة والسلام على نبينا محمد أفصح العرب والعجم وأبلغهم وأصدقهم قيلا، وعلى آله والصحب أجمعين.

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

بينما كنت أتصفح بعض كتب الأدب والنحو وقفت على شاهد مشهور من شواهد النحو لامرىء القيس، كان للعلماء كلام حوله، وثناء عليه، واختلاف في توجيهه، فأثار فضولي، وبعد تأمل رأيت فيه جوانب بلاغية مشرقة تستحق أن يزال عنها الحجب، وأعقبه عدة تساؤلات؛ ما مرجع اختلافهم فيه؟ وإلى أي شيء احتكموا؟ أ إلى الجانب المعياري أم إلى الجانب الذوقي، أم إليهما معا؟ ثم أين يقع المعنى الثاني(معنى المعنى) والسياق بقرائنه من هذا وذاك؟ وأين تكمن جوانب الإبداع التي حملت أهل الخبرة والذوق على أن يرفعوه إلى مكانة سامقة في البناء الشعري؟ فانتصبت هذه الورقة البحثية على استحياء مجيبة عن هذه التساؤلات، وتميط الحجب عن مخدرات المعاني، وتسعى إلى لمّ شتات ما تفرق من جهود ذوي الأثر المحمود في الدرس النحوي أو النقدي أو البلاغي حول هذا الشاهد خاصة، وما كان له به صلة بوجه ما، حيث لم أقف –فيما أعلم– على أحد قام بهذا الأمر. مع حرصي على إظهار أهمية المعنى والسياق حال التوجيه الإعرابي، تأكيدا على "أهمية الترابط العضوي بين المعنى والتركيب والإعراب، "وفي أكناف ذلك ينشط العامل البلاغي الجمالي الذوقي، تحقيقا لمقاصد الكلام، وإشباعا لذائقة البيان؛ إذ لا فصل بين البلاغة والنحو، ولا يفصل بينهما إلا مسلوب الذوق ناقص الملكة" وقد أسميته " **الشاهد النحوي بين المعيار اللغوي والذوق البلاغي (شعر امرئ القيس نموذجا)**"

خطة البحث:

وقد انتظم هذا البحث في مقدمة ومطلبين؛ المطلب الأول: بيان المقصود بالمعيارية اللغوية، والبلاغية الذوقية؛ وتحته مسألتان:١-النظرة المعيارية اللغوية.٢-النظرة البلاغية الذوقية. المطلب الثاني: الشاهد النحوي بين المعيارية اللغوية والبلاغية الذوقية. ومن ثم الخاتمة وتضم أبرز النتائج.

منهج البحث:

وقد سلكت منهج الاستقراء والجمع والتحليل والوصف والنقد، وحرصت على مناقشة الآراء ومعالجتها بموضوعية واهتمام، مع الحرص على الاستشهاد بالفصيح عند الحاجة، ومراعاة الاتزان في إصدار الأحكام، مع الاحتكام إلى نصوص القرآن الكريم والدراسات المتصلة به إن احتاج المقام، فما وجد الدرس البلاغي ابتداء إلا من أجل القرآن. وكل معلومة مكمّلة لا تمس جوهر البحث جعلتها في الحاشية. وكل معلومة ذات أهمية أوليتها مزيد عناية بوضع خط تحتها؛ لتسهيل الوصول إليها. وعمدت إلى توثيق النصوص المنقولة، وعزو الآيات ببيان اسم السورة ورقم الآية في المتن، وعزو الأبيات إلى أصحابها وبيان البحر الذي تنتمي إليه. وما أخذته (من أو عن) أحد مواقع الشبكة العنكبوتية الموثوقة أثبته في مكانه برابطه وعزوه إلى أصحابه. والحمد لله.

وبعد فإن وقع شيء من التقصير-وذا لازم لكل عمل بشري- فسدوا الخلل، وأعينوا على صلاح العمل، وإلى الله أبرأ من القول بلا علم، ومن العلم بلا عمل، والله حسبي ونعم الوكيل، ومنه وحده أستمد العون والتوفيق.

المطلب الأول: بيان المقصود بالمعيار اللغوي والذوق البلاغي.

الكلمة المفردة حال دراستها في النصوص الجميلة للكشف عن بعض ما تكنه من أسرار ودلالات، وإيضاح علاقة أصواتها –إن وجدت– بمعناها في سياقها، وعلاقتها بما جاورها من ألفاظ معنى وجرسا، وبيان وظيفتها من حيث البنية والمعنى والإيقاع في الجملة، وفي عموم النص....إلخ، ومن ثم إصدار الحكم عليها من زاوية فنية جمالية، دائر بين رحى نظرتين معيارية لغوية وبلاغية ذوقية، فما المقصود بكل منهما؟ وأيهما أولى بالعناية والتقديم في الدراسات البلاغية النقدية؟

١ –النظرة المعيارية اللغوية:

مفهوم (المعيارية) في اللغة[١] لا يبعد كثيراً عن مفهومها في الاصطلاح؛ **فالمِعياريّة في اللغة:** اسم منسوب إلى مِعْيار، مصدر صناعيّ، من عاير يعاير مُعَايرة وعِيَارا ومِعْيارا.

والمعيار هو ما يعرف بالعيار، وهو في الأصل نوع من الكيل، فعل مادي؛ من عاير القمح بالمكيال أو بالميزان ونحوهما، إذا قدَّرهما، ولكل قَدْرٍ من الشيء المكيل أو الموزون اسم؛ كالمنّ والرطل والصاع. قال الليث: العيار: ما عايرت به المكاييل. وفي المصباح المنير: " عَايَرْتُ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ مُعَايَرَةً وَعِيَارًا امْتَحَنْتُهُ بِغَيْرِهِ لِمَعْرِفَةِ صِحَّتِهِ. وَعِيَارُ الشَّيْءِ مَا جُعِلَ نِظَامًا لَهُ " .

والشيء المعياري هو المنسوب إلى المعيار؛ أي المقنّن المحدد والخاضع للقياس، أو القابل للقياس، ومنه العلوم المعياريَّة ؛ وهي التي تهدف

(١)ينظر مادة (عير، وعاير) تهذيب اللغة للأزهر:٣/ص١٠٧، ولسان العرب:٤/٦٢٣–، وتاج العروس:١٣/١٦٥–١٨٠، والمعجم الوسيط:٢/ص٦٣٩، والمصباح المنير: ٢/ص ٤٣٩.

إلى صوغ القواعد والنَّماذج الضَّروريّة لتحديد القيم، والاحتكام إليها لتعديل ما انحرف أو شذ عنها ؛كعلم المنطق والأخلاق وعلم الجمال ونحوها.

فالمعيار أو العيار[1] كما يتخذ أساسا لتقدير كيل الأشياء المادية أو وزنها وصحة ذلك بعد المعاينة والاختبار، فهو كذلك يتخذ أساسا للمقارنة والموازنة والوزن والتقييم والحكم في الأمور المعنوية في عالم اللسان(اللغة) وعلوم الآلة عامة... فهو مقياس يقاس به غيره بحسب موازين معينة؛ صحة وخطأ، موافقة ومخالفة، حسنا وقبحا، قبولا وردا؛ ولذا فالقواعد النحوية واللغوية الصرفية والبلاغية التي وضعها العلماء بعد الاستقراء للفصيح المنقول من لسان الأعراب الفصحاء واتفق عليه الجمهور بهذا المفهوم من المعيارية في الصميم.

عبد القاهر الجرجاني والمعيارية اللغوية:

ورد معنى (المعيارية) عند عبد القاهر الجرجاني ويقصد به (القياس)، والقياس أحد ركائز المنهج المعياري واللغة المعيارية، وذلك عند حديثه عن النحو والإعراب الذي يعدّ أهم موازين الكلام " قد علم أن الألفاظ معلقة على مَعانيها حتى يكونَ الإعرابُ هو الذي يَفتحها، وأنَّ الأغراضَ كامنةٌ فيها حتى يكونَ هو المستخرِجَ لها، **وأنه المعيارُ** الذي لا يتبيَّن نقصانُ كلامٍ ورجحانُه حتى يعرضَ عليه، والمقياسُ الذي لا يُعرفُ صحيحٌ من سَقيمٍ حتى يرجع إليه، لا يُنكِرُ ذلك إلاَّ من يُنكِر حِسَّه، وإلاَّ مَنْ غالطَ في الحقائقِ نَفْسَه"[2] .

(١) ينظر العين للخليل باب العين والرّاء والواو معهما:٢/ص ٢٣٩، ومعجم ديوان الأدب لأبي إبراهيم إسحاق بن إبراهيم بن الحسين الفارابي، (المتوفى: ٣٥٠هـ): ٣/ص٣٥٥، تحقيق: دكتور أحمد مختار عمر مؤسسة دار الشعب– القاهرة /١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣ م

(٢) دلائل الإعجاز: ص ٢٨ ت: شاكر، ط٣.

ولا يتسم الكلام عنده بوصف النظم العالي إلا إذا روعي فيه قوانين علم النحو التقليدي(اللغة المعيارية الكلاسيكية) القائم على المعيارية معنى ولفظا وتطبيقا، حيث يقول: " أعلم أنه ليس النظم إلاّ أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخلّ بشيء منها"[١] . ويقول عن القياس في موضع آخر: " والقياس يجري فيما تعيه القلوب، وتدركه العقول، وتستفتى فيه الأفهام والأذهان، لا الأسماع والآذان"[٢] .

والمعيار[٣] في الاصطلاح بصفة عامة من دون قيد: يعني إخضاع الأشياء لمقاييس محدَّدة محكمة مبتكرة من غير وجود سابق، أو مستنبطة من ذوي الخبرة والمعرفة في مجالهم من شيء قائم سلفا، يعد هو المثال الذي ينبغي أن يحتذى بمعايير عقلية أو دينية أو اجتماعية عرفية...إلخ، أو بها جميعا، تُقَيَّم وتوزن ويحكم عليها استنادا إليها (أي إلى هذه المقاييس).

و(المعيار) عند المشتغلين بالمنطق والفلسفة: هو نموذج متحقق أو متصور لما ينبغي أن يكون عليه الشيء[٤]. والمِعْيار: عند الأصوليين: هو الظرفُ المساوي للمظروف؛ كالوقت للصوم[٥]. وعند النَّقَدة هو المِحَكّ بكسر

(١) دلائل الإعجاز: ص ٨١

(٢) أسرار البلاغة: ص ٢٥ .

(٣)ينظر المعجم الفلسفي: ص٧٠٦، ص٩٣٧، وكشاف اصطلاحات الفنون: /ص١٠٠١،٧٦٩،٤٥٣.

(٤) المعجم الوسيط: ٦٣٩/٢.

(٥)التعريفات الفقهية لمحمد عميم الإحسان المجددي البركتي: ص٢١١، دار الكتب العلمية ١٤٠٧هـ.

الميم: مقياس للحُكم والتَّقييم تقول: عرَض القصيدةَ على المحكّ النَّقديّ أي: على المعيار النَّقديّ [١].

وقد ألفت كتب كثيرة في ضبط حدود العلوم الإنسانية واللسانية؛ منها كتاب "معيار النظار في علوم الأشعار" لعبد الوهاب بن إبراهيم بن عبد الوهاب الخزرجي الزنجاني من علماء القرن السابع الهجري، و"مفتاح العلوم" في النحو والصرف والبلاغة والعروض للسكاكي(٦٢٦هـ) ، و"معيار العلم" في المنطق لأبي حامد الغزالي(٥٠٥هـ)، و " اللغة العربية بين المعيارية والوصفية" د.تمام حسان.

وعليه فالمعيارية اللغوية: تعني الرجوع والاحتكام إلى مجموعة محددة من القواعد والقوانين الموضوعة لشأن من شؤون اللسان (نحوا أو صرفا أو معجما أو بلاغة...إلخ، معاني النحو) والمستنبطة من كلام العرب الفصحاء الذين يستشهد بكلامهم، ليس سواهم، وهو أمر ضروري دون شك، بعد الاستقراء والسبر من قبل أهل الاختصاص، عند الاختلاف حول قضية لغوية أو عند تحليل نص والحكم عليه من حيث المعنى والبنية والهيئة والصيغة للفظ، أو حيث الجرس والتراكيب والدلالات المنبثقة عنها والاستعمالات...بالصحة والخطأ، أو الجمال والقبح، أو عند تفسير الألفاظ واستنباط الدلالات والفوائد والأحكام...، باعتبار أن تلك القواعد هي المعيار الذي ينبغي الأخذ به والالتزام، والسير على سبيله، فمن خرج عنه كان مخطئا، وكان كلامه معيباً أو ناقصا فصاحة وبلاغة، أو ربما كان خارجا عن نطاق اللغة، وفساد النظم وصحته مرده إليه[٢] ؛ ويشهد له قول أحد

(١) ينظر معجم اللغة العربية المعاصرة د أحمد مختار عبد الحميد عمر: ١/ص٥٣٧ .

(٢) ينظر نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للرازي: ص ١٦٦

الباحثين وهو يتحدث عن المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم: " والسبيل إلى تحرير المعنى الدقيق لكل مفردة من المفردات القرآنية بالاشتقاق تخطِّيًا للخلاف اللفظي (والأقوى من اللفظي في حالة المشترك): هو إيجاد ضابط، أي معيار، يوزن به ويُطمأن إلى سلامة تحديد معاني المفردات القرآنية. ومن البَدَهيّ أن يكون ذلك المعيار مستمَدًّا من لغة العرب، أي من كلمات اللغة العربية وعباراتها؛ لأن القرآن نزل {بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ}الشعراء: ١٩٥" ، وفي موضع آخر يقول: " فهذا المعنى المحوري الجامع هو الضابط وهو المعيار الذي نحتكم إليه في تقرير ما هو الدقيق من تفسيرات الأئمة للمفردة والعبارة القرآنية "[(١)] .

والمعيارية بهذا المفهوم فيما يتصل بالنحو العربي خاصة ومعه الصرف– إذ هو رديف له، لا غنى لأحدهما عن الآخر– وصلتها بالبلاغة وأثرها في تحليل النص وتذوقه وتقصيده وبيان ما فيه؛ صحة وخطأ، حسنا وقبحا، هو محل نظر هذا الورقة البحثية، حيث تكشف عن ما يقبل من أنواع الانزياح أو المخالفة على وجه الشذوذ أو القلة لا العموم، أو ما يسمى بكسر المعيار في الاستعمال والبناء والصورة فيما يخص عمل المتكلم أو المبدع (فعمله – كما ذكر الدكتور تمام حسان– معياري، وعمل الناقد الباحث والمفسر وصفي[(٢)])، وما لا يقبل، متى يقبل؟ ومتى لا يقبل؟ فدائرة الإبداع اللغوي واسعة في عرف الأديب الفنان بخلاف غيره من عامة الناس، على حد قول الفرزدق حين سأله عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي النحوي عن سبب رفعه كلمة (مجلف) في قوله:

(١)المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم د.محمد حسن حسن جبل: ١/١١–١٢. مكتبة الآداب – القاهرة ط١/ ٢٠١٠ م.

(٢) اللغة العربية بين المعيارية والوصفية د. تمام حسان: ص ١٣، عالم الكتب

وعَضُّ زمانٍ يَابْنَ مَرْوانَ لَمْ يَدَعْ مـنَ المـالِ إلاَّ مُسْـحَتًا أو مُجَلَّـفُ

قال:"على ما يسوؤك ...علينا أن نقول وعليكم أن تَتَأَوَّلُوا" [١]، وعلى حد قول المتنبي حين اشتد جدله مع ابن خالويه في شأن تجاوزه اللغوي:

أَنـا الَّذي نَظَرَ الأَعمـى إِلـى أَدَبـي وَأَسـمَعَت كَلِمـاتي مَـن بِـهِ صَـمَمُ

أَنـامُ مِـلءَ جُفـوني عَـن شَـوارِدِها وَيَسـهَرُ الخَلـقُ جَرّاهـا وَيَختَصِـمُ

أليس من ذلك الكسر –كما يراه البنيويون وأضرابهم خروجا عن المألوف من اللغة– قول عبد القاهر: " وضربٌ آخرُ أنتَ لا تصِلُ منه إلى الغرضِ بدلالة اللفظِ وحدَه، ولكنْ يدلُّكَ اللفظُ على معناه الذي يَقْتضيه موضوعُهُ في اللغُة، ثُمَّ تَجدُ لذلك المعنى دَلالةً ثانيةً تَصِلُ بها إلى الغَرَض"[٢] يقصد بذلك المعنى الثاني (معنى المعنى) في صوره المجازية والكنائية التي لا حصر لها؟ وعن أثر ذلك على جماليات النصوص وحسن أدائها لحقوق المقام. وتؤكد على أن المقدم في عالم الشعر والأدب والفن والبلاغة والجمال هما الطبع والذوق لا المعيار، غير مغفلين أهمية حضوره في المشهد التحليلي عامة؛ إذ المرصود بالاستقراء أن النظام اللساني والمعيار الحكمي حين استقر واضحا بجملة قواعده تُرِكَ للغة الشعر والجمال والأدب أن تجول وتسبح وتمرح وتبدع وتتألق معتمدةً عليه غير متنكرة له[٣].

(١)خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب لعبد القادر بن عمر البغدادي: ٥/ص١٤٤.

(٢) دلائل الإعجاز: ص ٢٦٢.

(٣) ينظر الخصائص لابن جني في حديثه عن شجاعة العربية: ٢/ ص٣٦٢،٤٤٩. الهيئة المصرية العامة للكتاب ط٤.

الفرق بين اللغة المعيارية والمعيارية اللغوية:

اللسان العربي الفصيح الذي نزل به القرآن الكريم، بعد وضع علومه وقوانينه وحدوده نحوا وصرفا ومعجما ودلالة وفقها وبلاغة...إلخ، واستقرار ذلك في أواخر العصر العباسي، بعد مراحل من التنقيح والتطوير والبناء يعد لغة معيارية ؛ أي ذات حدود ورسوم وقواعد وقوانين خاصة، في طريقة الكتابة ورسم الحرف والنطق والبناء النحوي والصرفي، والمنهج الإعرابي، وفي المعجم الدلالي الوضعي للألفاظ، لا ينبغي الخروج عليها أو تجاوزها أو التغاضي عن الخطأ فيها، إلا بمقدار ما يحدث من تطور أسلوبي أو دلالي يلحق بعض الألفاظ لحاجة وظرف، دون الإخلال بالدلالة الوضعية ولا بالقانون اللغوي العام والمتفق عليه بين الجمهور.

وتلك ما تسمى بـ(اللغة العربية الفصحى المعيارية الكلاسيكية القديمة)، والتي يعد القرآن الكريم الوعاء اللغوي الأساس لها، بالإضافة إلى الحديث الشريف أفصح النصوص من كلام الناس، وكذلك الأدب الفصيح الجميل في عصور اللسان الزاهرة: الجاهلي والإسلامي والأموي والعباسي– أخص منه ما يصح الاستشهاد أو الاحتجاج به من كلام القبائل العربية الموثوق بفصاحتها، ولهجاتها الصافية في الجاهلية والإسلام شعرا ونثرا؛(قريش، وقيس، وتميم، وأسد، وهذيل، وكنانة، وبعض بني طيء)، وأفصحها جميعا قريش، وبها في معظمه نزل القرآن الكريم، قال عثمان رضي الله عنه حين أمر بجمع القرآن ونسخه: "فَإِن اخْتلفُوا وَزيد بن ثَابت فِي شَيْء من الْقُرْآن فاكتبوه بِلِسَان قُرَيْش فَإِن الْقُرْآن نزل بلسانهم"[(١)] ، والذي

(١) ينظر فضائل القرآن للقاسم بن سلام (المتوفى: ٢٢٤هـ):ص ٢٨٢، دار ابن كثير/ دمشق، ١٤١٥هـ، وفضائل القرآن لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ): ص٦٧، المحقق: د. فاروق حمادة، دار إحياء العلوم– بيروت، وفتح الباري لابن حجر: ٥٣٧/٦–٥٣٩ .

ينتهي عصره بنهاية العصر الأموي أو بعده بقليل[1]– إلى جانب الترجمات الهامة من اللغات القديمة في تلك الحقبة الحافلة بالنشاط العلمي الكبير فيما يخدم علوم الآلة عامة.

وعليه يكون الفصيح والأفصح، والفاضل والمفضول من الألفاظ والمعاني والتراكيب بموجب قوانين هذا اللسان(قوانين النحو وإخوانه) بقدر التزامه بها، واتساقه معها، أو قربه منها، أو بعده عنها، فيما يتعلق بالتركيب والدلالة والبنية والهيئة للفظ...، **يقول عبد القاهر مؤكدا على قضية المعيارية:** " فلا ترى كلاماً قد وصف بصحة نظم أو فساده، أو وصف بمزية وفضل فيه، إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة، وذلك الفساد، وتلك المزية، وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه، ووجدته يدخل في أصل من

(١) فالذين يعتمد عليهم في تقرير أحكام اللسان الفصيح هم شعراء الجاهلية الذين صح النقل عنهم؛ كامرىء القيس وزهير والأعشى، والمخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام: كحسان ولبيد والخنساء، والإسلاميين الذين نشأوا في صدر الإسلام؛ كالفرزدق والأخطل وذي الرمة (المتوفى:١١٧هـ). وأما المولَّدون (المُحْدَثُون) الذين تبتديء طبقتهم ببشار بن برد (المتوفى: ١٦٧هـ) ومن جاء بعده إلى يومنا هذا، فلا يحتجُّ بشيء من أشعارهم وأقوالهم . وقيل –كما نقل ثعلب عن الأصمعيِّ–: "خُتم الشعر بإبراهيم بن هَرْمة (المتوفى:١٧٦هـ)، وهو آخر مَنْ يُحْتجُّ بشعرهم" . وذهب قوم إلى صحة الاستشهاد بكلام من يوثَق بعربيته من الأدباء والشعراء المُحْدَثين؛ كبشار وأبي نواس والشافعي(المتوفى:٢٠٤هـ) وأبي تمام (المتوفى:٢٣١هـ). والرأي الأول أحوط وأرجح فيما يختص باللسان وقواعده لغة ونحوا وصرفا، وفي الاقتراح للجلال السيوطي: " أجمعوا على أنه لا يحتج بكلام المولدين والمحدثين في اللغة والعربية" . ينظر خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب لعبد القادر بن عمر البغدادي (المتوفى: ١٠٩٣هـ):١/ص ٥–٤٢٥،٤٠٦،٣١،٩، دار الكتب العلمية–بيروت/ ١٩٩٨، والخانجي/القاهرةط٤، ويتسمح فيما عدا ذلك فيما يختص بعلوم الذوق والبديع والبيان، على حد قول الأندلسيّ في "شرح بديعية ابن جابر": "علوم الأدب ستة: اللغة، والصرف، والنحو، والمعاني، والبيان، والبديع. والثلاثة الأُوَلُ لا يُستشهد عليها إلا بكلام العرب الفصحاء، دون الثلاثة الأخيرة، فإنه يُستشهد فيها بكلام غيرهم من المولدين؛ لأنها راجعة إلى المعاني، ولا فرق في ذلك بين العرب وغيرهم؛ إذ هو أمر راجع إلى العقل، ولذلك قُبِلَ من أهل هذا الفن الاستشهاد بكلام البحتري وأبي تمام وأبي الطيب وهلُمَّ جرا" . ينظر خزانة الأدب وغاية الأرب لتقي الدين أبي بكر علي بن عبد الله الحموي: ١/ص٢٣، دار ومكتبة الهلال – بيروت ط١/ ١٩٨٧م. وخزانة الأدب للبغدادي: ١/ص٢٩–٣٠.

أصوله، ويتصل بباب من أبوابه"[١] وما جاء مخالفا صريحا لقانونها الملزم المتفق عليه بين علماء اللسان كافة فلا يعد منها، وما جاء مخالفا للجمهور على وجه الشذوذ والقلة في استعمال العرب الفصحاء يعد من اللسان لكنه – في نظر البلاغيين– ليس بالفصيح ولا بالأفصح، فهل يكون له قبول إن كان له وجه يخرّج عليه، ويخدم مقاصد السياق ويثري النص؟

انظر –مثلا– إلى قول عبد القاهر مغلبا الجانب الذوقي على المعياري في تحليل بلاغي لطيف: " فإن قلتَ: فقد يَنبغي على هذا الأصلِ أن لا تجيء جملةٌ مِن مبتدأٍ وخبرٍ حالاً إلاَّ معِ "الواو"، وقد ذكرتُ قبْلُ أنَّ ذلك قد جاءَ في مواضعَ من كلامهم. فالجوابُ أنَّ القياسَ والأصْلَ أن لا تَجيءَ جملةٌ مِن مبتدأٍ وخبرٍ حالاً إلاَّ مع "الواو"، وأمَّا الذي جاءَ من ذلك فَسَبيلهُ سبيلُ الشيءِ يَخرجُ عن أَصْله وقياسِه والظاهرِ فيه، بضربٍ منَ التَّأويل ونوعٍ منَ التشبيه، فقَولُهم: "كلَّمتُهُ فوهُ إلى فيَّ"، إنما حَسُن بغيرِ "واو" من أجْل أنَّ المعنى: كلَّمْتُهُ مشافِهاً له. وكذلك قولُهم: "رجعَ عَوْدُه على بَدْئه"، إنما جاءَ الرفعُ فيه والابتداءُ من غيرِ "واو"، لأن المعنى: رجَعَ ذاهباً في طريقه الذي جاءَ فيه.." [٢].

وهذا ما أعنيه بالمعيارية اللغوية، وهي إذن ابنة للغة المعيارية وفرع عنها، ومستمدة منها، ودليل عليها، ومستندة إليها. وهذا ما ستكشف عنه هذه الورقة عرضا وتطبيقا إن شاء الله تعالى.

وينبغي التنويه هنا بأن (اللغة المعيارية) في الدراسات الألسنية واللغوية الحديثة في هذا العصر لها صورتان:

(١) دلائل الإعجاز: ص ٨٣.

(٢) دلائل الإعجاز: ص ٢١٨، ت: شاكر.

١-اللغة العربية المعيارية الكلاسيكية (القديمة)، وأشهر أدلتها عند اللغويين: القياس والسماع والنقل واستصحاب الحال أو الأصل، ويضيف البلاغيون إليها: الطبع والذوق، فيندرج تحته غير المألوف والشعري التصويري والرمزي الإيحائي، الجاري وفق قانون اللسان[١]، على حد قول ابن سنان الخفاجي: " والنظم مبني على الذوق"[٢]، وابن الأثير وهو أحد رواد الاحتفاء بالذوق يقول: " نحن في الذي نورده في هذا الكتاب واقفون مع الحسن لا مع الجواز... ونحن في استعمال ما نستعمله من الألفاظ واقفون مع الحسن لا مع الجواز. وهذا كله يرجع إلى حاكم الذوق السليم"[٣] . ويقول صاحب الطراز: "يعلمك أن السر في ذلك هو الذوق السليم والطبع المستقيم في التفرقة بين اللفظتين"[٤]، والحس الصادق بمواطن الحسن الناجم عن النظر في كلام البلغاء وممارسة أساليبهم . وعليه فهذه اللغة القديمة- وما نحن بدونها والحفاظ على إرثها؟!- هي ما تهمنا ونتكأ عليها في هذا المقام.

٢-اللغة المعيارية الحديثة؛ اللغة اليومية لغة القرن الحادي والعشرين، المستوعبة لعلوم العصر وتقنياته ومصطلحاته الجديدة والمتجددة التي لا تكاد تقف عند حد، لغة الإعلام بشقيه(المسموع والمرئي)، والصحافة الورقية والإلكترونية وما يعرض في برامج التواصل الاجتماعية والكتابات الحديثة ولغة التواصل بين الشعوب الناطقة باللسان العربي على اختلاف

(١) ينظر موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم لمحمد بن علي الحنفي التهانوي (المتوفى: بعد ١١٥٨هـ): ١/ ص ٢١ من المقدمة. لبنان ناشرون – بيروت ط١/ ١٩٩٦م

(٢) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي : ص ٢٨٩.

(٣) المثل السائر لابن الأثير تحقيق الحوفي وطبانة: ١/ ص٣٠٠، ٢/ص٦٢

(٤) الطراز للعلوي: ٢/ ص ٨٣.

لهجاتها المحلية وبيئاتها الجغرافية. وأشهر أدلتها الرصد والمعاينة والمقارنة والسماع والقياس.

وهذه على كل حال – من حيث اتخذها مقياسا ومعيارا في الحكم – ليست مقصودة، ولا محل لها في هذه الورقة البحثية، وإن كانت ابنة للفصحى الكلاسيكية، ولا حياة لها بدونها(١).

٢–البلاغية الذوقية:

البلاغة في ميدان الكلام والنظم –على وجه الإيجاز– هي إيصال المعاني إلى قلب المخاطب بأحسن وسيلة، من أقصر طريق، مع قوة التأثير وحصول الإمتاع بمفهومه الواسع.

وفي نظر المتأخرين من البلاغين: مطابقة الكلام لمقتضى الحال بعد الإتيان بشروط الفصاحة المتعلقة بالكلمة والكلام والمتكلم، ومراعاة وضوح الدلالة (الالتزام والتضمن) ومراتبها من حيث البيان والإفصاح عن المراد في الوجه الآخر من النظم؛ الموسوم بالمعنى الثاني(معنى المعنى) المختبئ خلف التراكيب التصويرية أو التجريدية، دون تعمية أو إخلال.

والذوق في اللغة: مَصْدَر: ذاقَ يَذوْقُ ذَوْقاً وذَوَقاناً ومَذَاقاً، وهو في أصل الوضع الحاسة يدرك بها طعم المأكول أو المشروب(٢).الذَّوْقُ : مُباشَرَة الحاسَّةِ الظّاهِرَة ، أَو الباطِنةِ ، ولا يَخْتَصُّ ذلك بحاسةِ الفَم في لُغَةِ القُرآنِ ،

(١) وثمة فروق بينهما تتمحور في الغالب حول: اتسام الأخيرة بتبسيط البناء اللغوي ووسْمِه بالوضوح والسهولة والمباشرة في المعنى، والابتعاد عن التراكيب المعقدة أو المُوهِمة والصور المجازية أو الأساليب التي تكد الذهن؛ فتستخدم الجمل الفعلية والقصيرة نوعا ما، وتبتعد عن استعمال الاسمية وأشباه الجمل بكثرة ، كما تتجافى عن الإتيان بالمترادفات أو تعدد الخبر، وعن أساليب المدح والذم التقليدية بنعم وبئس، والمحسنات اللفظية والمعنوية، ويقلب عليها استعمال الألفاظ المتداولة المستهلكة المبتذلة، وتتميز بالوقوف على الساكن في وسط الجملة كما تقف عليها في آخرها...إلخ.

(٢) ينظر لسان العرب مادة (ذوق).

ولا في لُغَةِ العَرَب، فقد يتوسع في معناه فيطلق على كل تجربة إنسانية جميلة تأنس بالشيء وتميل إليه. يقال: فلان حسن الذوق للشِّعر، إذا كان مطبوعاً عليه، "من المجاز أَن يستعمل الذَّوْق وهو ما يتعلّق بالأَجسام في المعاني" لسان العرب.

والذوق المتعلق باللسان(اللغة) في الاصطلاح: قوة غريزية أو ملكة فطرية يستطيع الإنسان بواسطتها إدراك لطائف الكلام وأسراره ومحاسنه الخفية[١].

و قد يطلق الذوق أيضا على القوة المهيئة للعلوم من حيث كمالها في الإدراك بحسب الفطرة، أو على حذق النفس في تقدير القيم الخلقية والفنية، كقدرتها على إدراك المعاني الخفية في العلاقات الإنسانية، أو قدرتها على الحكم على الآثار الفنية كالشعر والأدب والموسيقى بطريق الاحساس والتجربة الشخصية دون التقيد بقواعد معينة، وتسمى القدرة على تذوق الفن طبعا. وقد يراد بالذوق الذوق السليم مطلقا، وهو الحكم على الأشياء حكما صادقا و دقيقا[٢].

وعليه فالمقصود بمصطلح (البلاغية الذوقية): هو النظرة الفاحصة للنص تحليلا وتجلية لما فيه من صفات الحسن والقبح والصحة والخطأ لفظا ومعنى ونظما ودلالة معتمدة على توظيف معاني النحو وفنون البلاغة مراعا فيها **في المقام الأول** حاكمية الذوق والطبع.

(١)كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم لمحمد على التهانوى:١/١٤٤٤ مكتبة لبنان–بيروت/١٩٩٦م
(٢) ينظر الكليات للكفوي: ص ٧٢٨. والمعجم الفلسفي: ١/ص ٥٩٨.

المطلب الثاني : الشاهد النحوي بين المعيارية اللغوية والبلاغية الذوقية

يقول القلقشندي في صبح الأعشى: " وإذا تصفحت أشعارهم أيضا وجدت الوحشي من الألفاظ قليلا بالنسبة إلى المسلسل في الفم والسمع. وعلى هذا المنهج في الجزالة والسهولة يجري من النظم قول امرىء القيس[١]: من الطويل:

فَلَو أَنَّ ما أَسعى لِأَدنى مَعيشَةٍ كَفاني، وَلَمْ أَطْلُبْ، قَليلٌ مِنَ المالِ

وَلَكِنَّما أَسعى لِمَجدٍ مُؤَثَّلٍ وَقَد يُدرِكُ المَجدَ المُؤَثَّلَ أَمثالي

فانظر إلى هذين البيتين ليس فيهما لفظة غريبة ولا كُزّة، مع ما فيهما من الجزالة... فما بال قوم سكنوا الحضر ووجدوا رقة العيش يتعاطون وحشي الألفاظ وشظف العبارات؟! ولا يخلد إلى ذلك إلا جاهل بأسرار الفصاحة، أو عاجز عن سلوك طريقها "[٢] .

قلت: نعم، هذان البيتان يعدان من الأشعار النادرة ، والأمثال السائرة[٣] ، بل قيل: إنهما من أجود ما قيل في الفخر[٤]؛ "قيل للفرزدق: أي بيت قالته الشعراء أفخر؟ قال: قول امرئ القيس"[٥] وذكر البيتين، وفي الموشح للمرزباني:" قال أبو عمرو بن العلاء: **قال رؤبة:** ما رأيت أفخر من

(١) ديوان امرئ القيس: ص ١٣٩ دار المعرفة–بيروت ط/٣.

(٢)صبح الأعشى لأحمد بن علي القلقشندي:٢/٢٢٧–٢٣٢ دار الفكر – دمشق ط/١، ١٩٨٧م

(٣)ينظر لباب الآداب لأبي منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي النيسابوري: ص١٠٦، دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان، ط١/ : الأولى/ ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م ، ومجمع الأمثال لأبي الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري: ١/ ص١٩٥، دار المعرفة – بيروت

(٤)ينظر "المحاضرات في اللغة و الأدب" لليوسي: ص١٠٦، ونضرة الإغريض في نصرة القريض للمظفر بن الفضل: ص ٧٨، موقع الوراق http://www.alwarraq.com

(٥)ديوان المعاني لأبي هلال الحسن العسكري:١/ص٨١، دار الجيل– بيروت

قول امرى ء القيس"[١] وذكر البيتين، وما ذاك إلا لجودة النظم؛ فالشاعر في الطبقة الأولى بين شعراء الجاهلية، ولسمو همة القائل فيما تناوله من معنى، ويحق له، فهو ابن ملك، ويبحث عن ملك ضائع مسلوب؛ يشهد له قول قدامة بن جعفر مثنيا على حسن بنائه لهذا الشعر لفظا ومعنى : " استعمله اقتداراً وقوة، وتصرف فيه إحساناً وحذاقة"[٢] ، وتلك نظرة بلاغية ذوقية بامتياز، وقد صدق، فهو من الشعر المطبوع السهل الممتنع؛ لذا تعلّق بهما الشعراء قديما وحديثا، إما تضمينا، وإما سرقة وإغارة على المعنى، وإما إعادة سبك وتأليف، فأكثرَ الناسُ فيه، والفضل للأول، أخذهما – على سبيل المثال – خُفاف بن غُصَين البُرجُمي فغيَّر وأضاف، فقال[٣]: من الطويل:

فلو أنّ ما أسعى لنفسيَ وحدَها لـزادٍ يسـيرٍ أو ثيـاب علـى جِلـدي

لأُبـتُ علـى نفسـي وبلّـغ حـاجتي مـن المـالِ مـالٌ دون مـالي الـذي

ولكنمـــا أســـعى لمجـــد مؤثَّـــل وكـان أبـي نـال المكـارم عن جدّي

وهي – كما ترى– دون قول امرئ القيس قطعا، والصنعة والتكلف فيها ظاهر. كما ضمّنهما شعْرَه بنصهما أبو العباس عبد الله بن طاهر أحد أمراء دولة بني العباس فقال[٤]:

يلومـونني أنْ أكسـبَ الحمـدَ والثنـا بهـذا الحطـامِ الزائـلِ التافـهِ البـالي

لهجـتُ بأبيـاتِ امـرئ القـيسِ هـذهِ فـأكثرنَ إسـراجي وحطـي وترحـالي

(١)الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء لأبي عبيد الله بن محمد بن عمران بن موسى المرزباني (المتوفى: ٣٨٤هـ): ص ٢٢.

(٢) نقد الشعر لقدامة بن جعفر: ص ٢.

(٣) ينظر الوساطة لعلي بن عبد العزيز الجرجاني: ص ٧٤.

(٤)ينظر المذاكرة في ألقاب الشعراء للنشابي الإربيلي: ص٣٥

"فلو أنَّ ما أدعي لأدنى معيشةٍ كفاني، ولم أطلبْ، قليلٌ من المالِ
ولكنني أسعى لمجدٍ مؤثلٍ وقد يدركُ المجدَ المؤثلَ أمثالي"

والمعنى فيهما بإيجاز: يمثل علو الهمة وقوة العزم على بلوغ الهدف في ثوب مماحكة عقلية جدلية؛ أي: لو ثبت كون سعيي لأدنى معيشة كفاني قليل من المال. لكنني أسعى لمجد وهو الملك الضائع، وذا يستوجب علما وجهدا وتضحية، وسأدركه يوما ما ولو طال الزمان. وهو في معنى قول الشاعر: من الكامل

مـن يسـتطيع بلـوغَ أعلـى منـزلٍ، مـا بالُـه يرضـى بـأدنى منـزل؟!

فكيف بَنَى امرؤ القيس هذا المعنى وصوره ودل عليه بأوجز لفظ وأجمله؟!

وللإجابة عن ذلك لنا معهما عدة وقفات معيارية وفنية بلاغية: فمن الدلالات الثانية (معنى المعنى) التي تضمنها البيت الأول اعتمادا على دلالة التضمن أو الالتزام– بالإضافة إلى ما تقدم– أن المرء لا يكون "جواداً محضاً حتى يقنع باليسير، ويجود بالكثير الخطير، ويؤثر على نفسه ولو كان به خصاصة"[(١)]، وترتفع همته عن الخسيس المادي، إلى الكبير المعنوي، حتى يكون في المكان العَلِيّ، إلا أن الاشتراط أو القيد أو الاستدراك الذي غالبا ما يتبع (لو) الشرطية، في البيت الثاني، أضعف هذا المعنى على إطلاقه؛ إذ يفهم منه أنه لن يقنع بأدنى معيشة على وجه الكفاف والتنزه عن الطمع، والجود باليسير إلا بعد أن ينال الملك الذي هو

(١)ينظر اللآلي في شرح أمالي القالي لعبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري: ١/ص٨٦، دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان ط١/ ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م

في الحقيقة المجد المؤثل؛ أي القديم، ثابت الأصل سامق الفرع[١]. وسيبذل كل ما في وسعه من أجله أولا. هذا وجه، لكنه ليس بالقوي ولا الأظهر.

على كل حال ففي البيتين من فنون البلاغة الكثير؛ ففيهما: الانسجام[٢]، والإطناب بالاعتراض على قول، والحذف، والإيجاز، والطباق المعنوي أو الخفي، وطباق سلب[٣]، والإبهام والتفسير[٤] على قول، والإظهار في موطن الإضمار، والتوكيد، والجناس؛ فأصل البناء: فلو ثبت كون سعيي لأدنى معيشة (أي كفافا؛ فأُبِهم وأجمل) ، ثم فسَّره بقوله: كفاني قليل المال، **ولم أطلب الكثير منه**، فدل البيت بجملته على المعنى الحقير، وقابله بالأمر العظيم في البيت الثاني[٥]،أي: ولكنني أسعى إلى الحصول على الملك والسيادة، وذا هو المجد الثابت؛ لذلك يتوجب عليَّ الجد والاجتهاد المستمر

---

(١) ينظر جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري: ١/ص ٣٧٩، دار الفكر –ط٢ / ١٩٨٨م

(٢)"وهو أن يأتي الكلام متحدرا كتحدر الماء المنسجم، سهولة سبك وعذوبة ألفاظ، حتى يكون للجملة من المنثور والبيت من الموزون وقع في النفوس وتأثير في القلوب ما ليس لغيره، مع خلوه من البديع، وبعده عن التصنيع" ، والبيتان كذلك، ينظر تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر لابن أبي الأصبع

(٣)ينظر الفوائد الضيائية شرح كافية ابن الحاجب لنور الدين عبد الرحمن الجامي (ت:٨٩٨ هـ) :ص١٦٣،

دراسة وتحقيق : الدكتور أسامة طه الرفاعي

(٤) ينظر العمدة : ٢/ ص ٣٦-٣٧. والتفسير في الحضن البلاغي وهو من مخترعات قدامة: أن يأتي المتكلم أو الشاعر في بيت بمعنى لا يستقل الفهم بمعرفة فحواه دون تفسيره؛ إما في البيت الآخر، وإما في بقية البيت، أي أن يستوفي الشاعر شرح ما ابتدأ به مجملا، وقل ما يجيء هذا إلا في أكثر من بيت ، نحو قول الفرزدق واختاره قدامة:

لقد جئت قوماً لو لجأت إليهم ... طريد دم أو حاملاً ثقل مغرم

لألفيت منهم معطياً ومطاعناً ... وراء شزراً بالوشيج المقوم

ومن جيد التفسير في بيت واحد قول أبي الطيب:

فتى كالسحاب الجون يخشى ويرتجى ... ويرجى الحيا منه وتخشى الصواعق" ينظر خزانة الأدب وغاية الأرب

لتقي الدين أبي بكر علي بن عبد الله الحموي: ٢/ ص٣٧٠، مكتبة الهلال– بيروت ط١/١٩٨٧م

(٥) ينظر أصول النحو العربي لمحمد عيد: ص ١٥٦.

لتحصيله، وسأدركه لا محالة. وذا هو الطباق الخفي، **قال ابن الأثير**" تقديره كفاني قليل من المال، فاعترض بين الفعل والفاعل بقوله: (ولم أطلب) وفائدته: تحقير المعيشة وأنها تحصل بغير طلب ولا عناء، وإنما الذي يحتاج إلى الطلب هو المجد المؤثل...والاعتراض إذا كان هكذا كسا الكلام لطفا إن كان غزلا، وكساه أبهة وجلالا إن كان مديحا، أو ما يجري مجراه من أساليب الكلام"(١) .

وعلى هذا التقدير تكون جملة (ولم أطلب) استئنافية لا محل لها من الإعراب، تؤكد المعنى السابق، على وجه المطابقة، وهو وجه صحيح، ويشهد له ما ورد في شرح الأشموني" وجملة (كفاني...) الفعلية لا محل لها من الإعراب؛ لأنها جواب شرط غير جازم. وجملة (لم أطلب) الفعلية لا محل لها من الإعراب؛ لأنها اعتراضية"(٢). ورده **ابن أبي الحديد** في قوله:" قوله (ولم أطلب) اعتراض...ليس بصحيح؛ لأن فائدة البيت مرتبطة به؛ وتقديره: لو سعيت لأن آكل وأشرب لكفاني القليل ولم أطلب الملك، فكيف يكون قوله (ولم أطلب الملك) اعتراضا؟! ومن شأن الاعتراض أن يكون فضلة، ترد لتحسين وتكملة، وليست فائدته أصلية"(٣).

هذا على القول بأن جملة (لم أطلب) لها محل من الإعراب، معطوفة على جملة جواب الشرط (كفاني)، أو حالية، فيصح وقوع التنازع،

(١)المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لأبي الفتح ضياء الدين ابن الأثير: ٢/ ص١٧٥، تحقيق : محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية– بيروت ، ١٩٩٥م.

(٢)شرح الأشموني على ألفية ابن مالك لعلي بن محمد الأُشْمُوني (المتوفى: ٩٠٠هـ) :١/ص٤٥١، دار الكتب العلمية –بيروت ط١/ ١٤١٩هـ– ١٩٩٨مـ

(٣) شرح نهج البلاغة لأبي حامد عز الدين بن هبة الله بن محمد بن محمد بن أبي الحديد المدائني:٩/ص٤٦ ، تحقيق: محمد عبد الكريم النمري، دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان ط١/ ١٤١٨هـ – ١٩٩٨م

على حد قوله تعالى: (وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُسَمًّى (١٢٩)) طه: ١٢٩، قيل الأصل: ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاما، فيكون اعتراضه حينئذ سائغا، ومع ذلك فلا يصح به المعنى على الوجهين كما سيأتي، ويشهد له ما نقله **أبو حيان** في تذكرة النحاة : " قال ابن خروف: الحال فاسدة. ووجه شيخنا فساد الحال بأن قال:..لأنها تكون مقيدة للكفاية.. ولا يلزم من انتفاء المقيد انتفاء المطلق...فلا يعطي حينئذ مراد الشاعر"[(١)] .

قلت: وحُذِفَ مفعول (ولم أطلب) وقدر – وهو مفتاح البيت– لتذهب النفس معه كل مذهب، مع تحقيق عنصر الإيجاز وتوكيد المقصود؛ فقد يكون: الملك والمجد، أو الذكر الحسن، أو معالي الأمور، أو المال الكثير، أو قليل المال...إلخ، والأول أظهر؛ قال علي بن عدلان: الفعل "(اطلب) مفعوله الملك، وقد حذفه"[(٢)] ، تشويقا وتعظيما له وتفخيما؛ كغرض حذف المفعول به في قوله تعالى: (وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ...(١٠٥)) التوبة:١٠٥، ويعضده قول المبرد : "وإنما المطلوب في الحقيقة الملك، وعليه معنى الشعر"[(٣)]، ويشهد له قول الشاعر نفسه في موضع آخر[(٤)]: من الطويل :

بكى صاحبي لمَّا رأى الدربَ دونَهُ وأيقــنَ أنَّــا لاحقــان بقيصــرا

(١) تذكرة النحاة لأبي حيان محمد بن يوسف الغرناطي (المتوفى:٧٤٥هـ): ١/ص ٣٤١.

(٢)الانتخاب لكشف الأبيات المشكلة الإعراب لعلي بن عدلان الموصلي النحوي: ص٦٥، تحقيق : د. حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة – بيروت/ ط١/: الثانية/ ١٤٠٥هـ –١٩٨٥م

(٣) المقتضب لمحمد بن يزيد المبرد (المتوفى: ٢٨٥هـ):٤/ ص٧٦ المحقق: محمد عبد الخالق عظيمة. عالم الكتب– بيروت

(٤) ديوان امرئ القيس: ص ٩٨ .

فقلــتُ لــهُ لا تبــكِ عينــكَ إنَّمــا نحــاولُ مُلكــاً أوْ نمــوتُ فنُعــذرا

وذهب غيره إلى أن التقدير: أي لم أطلب العز والمجد[١]... وهو قول حسن، والمعنى:" أي: لو سعيت لمعيشة دنية لم أطلب– إلا– قليلا من مال، وقد سعيت للملك... فاستعمل المبالغة جريا على عادة الشعراء"[٢] ، وبعد أن أبهمه وفخمه وشوّق إليه بهذا الحذف، ودل عليه بما في التركيب من مشاكسة، واحتمال تنازع– وذا أحد أسرار البناء اللغوي العالي– ناتج عن الفصل بين متلازمين(بين الفعل وفاعله)، لكن بما ليس منهما بأجنبي صِرْفا، بل له بالمعنى التصاق من وجهين: الأول: معياري لغوي صناعي، تمسكا بنظرية العامل؛ إذ (الفعل المعترض) يطلب ما بعده على المفعولية لقربه منه، فهو أحق به، كما ذهب إليه البصريون، والفعل الأول(كفاني) يطلبه على الفاعلية؛ لأوَّليَّته وتقدّمه، فهو أولى به، على رأي الكوفيين؛ لذا عد من التنازع (إن أعملت الأول في الاسم الظاهر أعملت الثاني المهمل في ضميره، والعكس). نعم يصح ذلك في الظاهر صناعة، لكنه عند التحقيق، وبالاعتماد على الوجه الثاني: وهو الدلالي البلاغي الذوقي، ليس كذلك، ولا يصح حمله على التنازع، خلافا لما توهمه أبو علي الفارسي، وهو الأولى بالمراعاة والنظر؛ لأن من شرط التنازع هو توجه العاملين إلى معمول واحد **مع صحة المعنى**، أما إذا كان في توجهِهما إليه ما يقتضي فساد المعنى– كما هو الحال هنا– فلا يكون حينئذ من التنازعِ.

فعلى رأي الكوفيين القائلين بالتنازع: الواو في قوله (ولم أطلب) حالية، والمعنى: كفاني قليل من المال حال كوني غير طالب له ، فيكون

(١)ينظر الفوائد الضيائية شرح كافية ابن الحاجب :ص١٦٣

(٢)الانتخاب لكشف الأبيات المشكلة الإعراب لعلي بن عدلان: ص٦٥

مفعول (أطلب) الضمير العائد على قليل المال، ولا منافاة بين أن يكون قليل المال كافيا له، وأن يكون غير طالب له.

قلت: هذا غير متسق مع السياق بناء وغاية، وفيه ابتذال للمعنى وإفساد له، ويرده ما بعده من الاستدراك(ولكنما أسعى...)؛ لأن الفعل (كفاني) وفاعله مرتب على السعي لأدنى معيشة، والسعي الدني منتفٍ بدخول (لو) الامتناعية عليه؛ إذ هو مثبت، فكذلك جوابها(كفاني) ممتنع، (فهي قيد في الجملة الشرطية، حرف امتناع لامتناع)، وهذا السعي هو عين طلب القليل من المال، أو مستلزم له ، فكيف يكون الكفاية المرتبة على هذا السعي مقيدة بعدم الطلب ومقارنة له؟؟!! أو تكون الواو عاطفة، والمعنى: لو أن سعيي لأدنى معيشة حاصل كفاني قليل من المال، ولم أطلب قليلا من المال، **وفي هذا أيضا تناقض وحشو**. فيتعين أن يكون مفعول (أطلب) محذوفًا مقدرا يناسب المقام؛ كأن يكون (الملك أو السيادة أو الثروة مثلا) وتكون الجملة استئنافية على حد الاستئناف في (وَكَلِمَةُ اللَّهِ...) في قوله تعالى: (وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠))التوبة:٤٠، ويصح أن تكون الواو في الآية عاطفة مفردا على مفرد، وتكون لفظة (وكلمة الله) معمولا للفعل (جعل)، من حيث الصناعة النحوية، وقد انفرد بقراءة الفتح يعقوب والأعمش على العطف، والباقون بالرفع[1]، خاصة وأن الفعل (جعل) له حظوة في هذه المقام، فقد كَنَّى الأعلى –سبحانه– به في قوله (وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى): "عن كل أمر من أمورهم الحسية والمعنوية، فكل أمر الذين كفروا جعله الله تعالى الأسفل، ليس شيء في الوجود أسفل منه وأحط ...وفي اصطفاء فعل (

(١) ينظر إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر لأحمد بن محمد الدمياطيّ، الشهير بالبناء (المتوفى: ١١١٧هـ): ص٣٠٤، ت: أنس مهرة، دار الكتب العلمية– لبنان، ط/٣/ ٢٠٠٦م – ١٤٢٧هـ

الجعل) جمعٌ لعديد من الدَّلالات التي يأتي لها ذلك الفعل، فهو متسع الدَّلالة... لفظ عام في الأفعال كلها ، فهو أعَمُّ من: فعل وعمل وصنع وسائر ما يجري مَجراها، كما نص على ذلك الراغب[١]" إلا أن قراءة السبعة أبلغ وأتم، فإنه لمَّا كَمُلَ البيانُ على أعظم وجه بذكر حال الكافرين وأفعالهم أقوالهم ومكرهم، شرع تبارك وتعالى في بيان الحقيقة الثابتة الجامعة لكل الحقائق ،المستمرة لا تنقطع، الدائمة بدوام من تكلم بها؛ فهي أمر الله وقدره ووعده، على وجه المقابلة البيانية الإيمانية فقال: (وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا) على قراءة الجمهور برفع (كلمة الله)، بالاسمية، مشتملة على أسلوب التخصيص الحصري، بتعريف الطرفين، مؤكدًا له بضمير الفصل(هي)، الحامل مع هذا التأكيد الحصري معنى أن الخبر متحقق في كُنْهِ المسند إليه، وأن ذلك ليس أمرًا عارضًا قد يعتريه زوال أو نقص، فكان هذا تانيسًا لكلِّ نافرٍ إلى الجهاد في سبيل الله تعالى ، فإن من نفر وهو موقن أن كلمة الله هي العليا جاهد وهو المطمئنُّ قلبه بعلُوِّ كلمة الله تعالى "[٢] والحمد لله.

قال الفراء: "ويجوز: وكلمةَ اللّه هي العليا– على النصب– ولست أستحبّ ذلك؛ لظهور –اسم– اللّه تبارك وتعالى"[٣] الذي يوحي ذكره نصا (الله) بالجلال والعظمة والقدرة، وتتحقق به البركة، فقال سبحانه: (وكلمة الله)، ولم يقل: وكلمته هي العليا، على الإضمار، وإن صح صناعة، إلا إنه –دون شك– دون الأول الذي هو لفظ القرآن.

(١) ينظر المفردات للراغب الأصفهاني مادة (جعل) : ص١٩٦.
(٢) ينظر شذرات الذهب دراسة بلاغية قرآنية د. محمود توفيق: ١/ص٨٣.
(٣)معاني القرآن للفراء: ١/ ص٤٣٨

ومن أغراض هذا العدول من الإضمار إلى الإظهار –بالإضافة إلى ما سبق–، "تمكين (اللفظ) نفسه زيادة تمكين"[(١)]، في نفس المتلقي، و" تعظيم شأن الأمر الذي أظهر عنده الاسم المضمر أولا"[(٢)]، كما نص على ذلك **السكاكي وابن الأثير**.

وحمل الجملة القرآنية (وكلمة الله هي العليا) على الابتداء والاستئناف يدل على أن الحكم فيها له صفة الدوام والثبات والاستقلال، وذا دون شك أقوى بلاغة وقصدا ودلالة وإن صح غيره نحوا.

وثمرة هذا الاختلاف فيما بين القراءتين –إن صحت الثانية غير المتواترة– " أن الله تعالى في قراءة النصب جعل كلمته عليّة ظاهرة، بظهور أهلها إذا قاموا بتكاليفها كما ينبغي، وأدوا حقها، فإن تخلف نصره وعلو دينه وكلمته فلسبب ومانع، متعلق بالمكلفين فعلا ومشيئة، لا بها حكما وقدرا، فالأصل بقاء الأمر على حكمه، ولذا عاد فقرر في القراءة السبعية المتواترة أن علوّ كلمته سبحانه قديم لم يطرأ بعد أن لم يكن، فالمسألة مسألة إبداء وليست مسألة ابتداء، فكلمة الله عالية أصلا، ولكن ظنّ بعض الناس خلاف ذلك فأظهر المولى سبحانه إرادته حين قدر نصرة نبيه صلّى الله عليه وسلّم رغم كونه وحيدا طريدا، على المشركين يوم الغار(لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا(٤٠))التوبة: ٤٠" .

والخلاصة: أنه لو صح توجيه العاملين في بيت امرئ القيس (كفاني)، (ولم أطلب) إلى (قليل) على وجه التنازع، مراعاة للمعيار النحوي الصناعي، لزم اجتماع النقيضين، وقد تكلف قوم إثباته، وهو باطل، كما أنه

(١) مفتاح العلوم للسكاكي: ص ١٩٨.

(٢) المثل السائر لابن الأثير: ٢/ ص ٢٢. المكتبة العصرية – بيروت/ ١٩٩٥م

لم يتحقق ركن التنازع الثالث وهو احتياج كل من العاملين للمعمول المتأخر من جهة المعنى، والحاكم هو المعنى لا الصناعة؛ ويشهد له ما ورد **في تذكرة النحاة لأبي حيان**: " فإنما رفع لأنه لم يجعل (القليل) مطلوبا، وإنما كان المطلوب عنده الملك...ولو لم يرد ذلك فنصب فسد المعنى...فلو جاز أن يعمل (لم أطلب) في (قليل) لكان طلب القليل مثبتا ضرورة؛ كون معه حرف (نفي)، فيكون حينئذ قد أثبت طلب القليل بعد نفيه السعي لأدنى معيشة، ولا معنى لطب القليل إلا بالسعي لأدنى معيشة، ولا السعي لأدنى معيشة إلا طلب القليل، فيكون قد أثبت ثانيا ما نفى أولا؛ فيتناقض أول البيت وآخره، بخلاف ما إذا جعلنا مفعول (لم أطلب) الملك، فإنه يستقيم...ويؤكد أن المطلوب عنده الملك قوله بعده (ولكنما أسعى لمجد مؤثل...)"[(١)]. وقول **فخر الدين الرازي**: " قوله : (كفاني ولم أطلب) ، ليسا متوجهين إلى شيء واحد؛ لأن قوله (كفاني) موجه إلى قليل من المال ، وقوله (ولم أطلب) غير موجه إلى قليل من المال؛ وإلا لصار التقدير: فلو أن ما أسعى لأدنى معيشة لم أطلب قليلا من المال ، وكلمة (لو) تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره ، فيلزم حينئذ أنه ما سعى لأدنى معيشة ، ومع ذلك فقد طلب قليلا من المال ، وهذا متناقض ، فثبت أن المعنى: ولو أن ما أسعى لأدنى معيشة كفاني قليل من المال ولم أطلب الملك"[(٢)]، على الاستئناف، والحقيقة خلاف ذلك، بل إني أسعى إلى أمر عظيم وأطلب الملك والسيادة، وذا يستلزم أن أنفق كل أملك وأبذل كل ما أستطيع، أخذاه **عن سيبويه** في

(١) تذكرة النحاة لأبي حيان محمد بن يوسف الغرناطي: ١/ص ٣٣٩-٣٤٠.
(٢) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي: ١/ ص٦٦.

قوله: " فإنما رفع؛ لأنه لم يجعل القليل مطلوبا، وإنما كان المطلوب عنده الملك، وجعل القليل كافيا. ولو لم يرد ذلك ونصب لفسد المعنى"[١] .

وهذا هو الأرجح. وكتب النحو طافحة بالشواهد الدالة على أهمية المعنى والمقصد حال التوجيه الإعرابي، وتؤكد على أهمية الترابط العضوي بين المعنى والإعراب، وفي أكناف ذلك ينشط العامل البلاغي الجمالي الذوقي، تحقيقا لمقاصد الكلام والمتكلم، وإشباعا لذائقة البيان؛ إذ لا فصل بين البلاغة والنحو، ولا يفصل بينهما إلا عديم الذوق ناقص الملكة.

وبتمام المعنى في البيت الأول ينتصب سؤال: ما دام أن السعي إلى العيش الخسيس منتف، وكذلك الاكتفاء بالمال القليل، فإلى أي شيء إذًا تسعى؟ وماذا تطلب؟! فأفصح عن هذا المبهم المقدر بما فيه من وجوه الاحتمال، وأجاب عن هذا السؤال التنزيلي في أسلوب استدراكي توكيدي مصدرا بـ(ولكنّما، أو ولكنني)، في موطن الفخر، (أسعى لمجد مؤثّل...)، ألا هو الملك والقيادة، قاطعا لكل اشتراك، ورافعا لكل الاحتمالات، ليجد له أوثق مكان من قلب المخاطب فيستقر فيه بلا عناء أحسن استقرار، ولكنه –فيما يبدو– استدرك على نفسه، بسبب ما هو فيه من لهو وعبث ومجون وحال تشرد معظم حياته، فربما لا يجد له من ناصر من قومه أو من حلفائهم، أو ربما لا يكون قادرا على الأخذ بالثأر من قتلة أبيه بني أسد، واسترداد الملك؛ لعارض أصابه ، فقال على وجه الاطناب والاحتراس مصدرا بـ(قد)[٢]

(١) الكتاب لسيبويه عمرو بن عثمان بن قنبر (المتوفى:١٨٠هـ) : ١/ ص ٧٩ الخانجي – القاهرة ط٣.

(٢)واختلفت عبارات النحويين في معنى قد. فقيل: هي حرف توقع. وقيل: حرف تقريب، وقال بعضهم: إن دخلت على المضارع، لفظاً ومعنى، فهي للتوقع، وإن دخلت على الماضي لفظاً ومعنى، أو معنى، فهي للتحقيق. والحاصل أنها تفيد، مع الماضي، أحد ثلاثة معان: التوقع، والتقريب، والتحقيق. ومع المضارع أحد أربعة معان: التوقع، والتقليل، والتحقيق، والتكثير. ينظر الجنى الداني للمرادي: ٢٥٣–٢٦٠.

التوقّعيّة المفيدة للتقليل من وقوع الفعل أو في متعلقه، كما هو شأنها في غالب استعمالاتها حين دخولها على المضارع لفظا ومعنى، كقولك: قد يصدق الكذوب، ومنه **قول طرفة بن العبد**(١) من الكامل:

قد يَبْعَثُ الأَمْرَ العَظِيمَ صَغِيرُهُ حتَّى تظَلَّ لـه الـدِّماءُ تَصَبَّبُ

وقد تأتي على قلة بمعونة القرينة بمعنى التحقيق والتأكيد أو التكثير؛ كما هي في قوله تعالى: (أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ...(٦٤)) النور:٦٤؛ لأن الأمر متعلق بالذي يعلم السر وأخفى، وأحاط بكل شيء علما، وهو على كل شيء قدير، والمستقبل والحاضر والماضي في علم الله على حد سواء، بخلاف حال العباد. وقد ورد في معنى التحقيق والتكثير فيها قول رجل من الأنصار(٢)–أظنه إبراهيم بن بشير– في أول الإسلام وتحمل قصيدته على امرئ القيس، من البسيط:

قد أشهدُ الغارةَ الشعواءَ تحملني جرداءُ معروقَةُ اللَّحيينِ سُرحوبُ

ومثله **قول أبي محمد بن عبد الملك**(٣) من قصيدة يخاطب به المأمون من الطويل:

فَهَذي أُمُورٌ قَدْ يَخافُ ذَوُو النُّهَى مَغَبَّتَهـا، وَاللهُ يَهْـديكَ لِلرُّشْـدِ

وقول أبي محجن عبد الله بن حبيب الثقفي(٤)، وهو شاعر مخضرم من البسيط:

---

(١) ديوان طرفة بن العبد: ص ١٢. من قصيدة مطلعها: (ما تَنظُرونَ بِحَقّ وَردَةَ فيكُمُ...).

(٢) ينظر الجنى الداني الجنى الداني في حروف المعاني لأبي محمد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله بن عليّ المرادي (المتوفى: ٧٤٩هـ): ص٢٥٨، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ط١/ ١٤١٣ هـ-١٩٩٢م، والجليس الصالح والأنيس الناصح للمعافى بن زكريا: ص٣٤١، الخيل لأبي عبيدة: ص٣٠، والمعاني الكبير لابن قتيبة: ص٢٨. والسرحوب وصف في الغالب للفرس: الطويلة السريعة

(٣)أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم للصولي: ٨-٩، موقع الوراق.

(٤) الحماسة البصرية: ص ٤ .

لا تَسْأَلِي النَّاسَ عن مَالِي وَكَثْرَتِه وسـائِلِي النَّـاسَ عـن فِعْلِـي وعَـنْ
قـد يَعْلَـمُ القَـوْمُ أَنِّـي مِـن سَـراتِهِمُ إذا سَـما بَصَـرُ الرِّعدِيـدَةِ الفَـرقِ

وقول **متمم بن نويرة**[1] (المتوفى: ٣٠هـ)، من الطويل:

فَتـىً لَـمْ يَعِشْ يومـاً بِـذَمٍّ ولَـمْ يَـزَلْ حَوَالَيْـــهِ مِمَّـــنْ يَجْتَدِيـــهِ رُبُـــوعُ
لــهُ تَبَــعٌ قَــد يَعْلَــمُ النَّــاسُ أَنَّــهُ عَلَـى مَـن يُـدَانِي صَـيِّفٌ ورَبِيـعُ

وكأني بامرئ القيس يعتذر لنفسه بذكاء بفعل غيره، من أولئك النفر الذين هم في مثل طموحه وقوته وفروسيته وقوة بأسه ومضاء عزيمته، والمعنى: ما دام أن أمثالي في القوة والطموح قد يتخلفون عن نيل هذا الصعب المتناهي في البعد والمشقة؛ وهو المُلْك وما كان في حكمه، فأنا مثلهم ربما أصابني ما يصيبهم؟!

وإن حملت (قد) على معنى التكثير والتحقيق كان قوله:(وقد يدرك المجد المؤثل أمثالي)، إما أن يحمل على معنى الإيغال، وإما على التذييل .

وعدل عن الإضمار إلى الإظهار على حد قوله تعالى: (وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ(٥٣))يوسف:٥٣، فقال: (وقد يدرك المجد المؤثل)، وحقه أن يضمر؛ لتقدم ذكره، فيقول: وقد **يدركه** أمثالي، للتأكيد على معنى التعظيم والتفخيم للمطلوب المبهم في قوله: (ولم أطلب)، نكّره ووصفه (لمجد مؤثل)، ثم أعاده معرفة (المجد المؤثل) فإما أن يكون هو عينه فتكون (أل) عهدية، وإما أن تكون محتملة لها وللجنسية الاستغراقية، وذا أبلغ؛ ليدلل على عراقة آبائه في ذروة المجد والملك، إذ لم يكن حادثا من قريب، فهو أحق به، وجاء الجناس غير التام في القافية (المؤثل أمثالي) مع ما قبله من التكرار للألفاظ(مجد،

(١) المفضليات للمفضل الضبي: ص ٢٧٢.

مؤثل) لتمتزج الصورة الصوتية العذبة بالصورة الذهنية المغرقة في تجسيد كبرياء النفس وأنفتها وعزتها، فتتم مشهد تماسك النظم لفظا ومعنى وإيقاعا، ويقوى عنصر التأثير في المتلقي، بالتقاء البعد الموسيقي بالبعد التعبيري الذي منتهاه في القافية إيغالا وتوكيدا؛ ولذا قال ابن داود الأصبهاني: " وهو من جيد كلامه، وهو من الأمثال السائرة من شعره، وإن كان غير محمود المعنى في حقيقته"(١) ، لماذا هو غير محمود المعنى؟

والجواب: لأنه تعلق بالخسيس من شرف الدنيا الفانية؛ إذ الشاعر جاهلي لا يؤمن بالبعث والدار الآخرة، ولم تبلغه الرسالة بعد، وتلك أقصى أمانيه، وهي أمنية حسنة في زمانه ولأمثاله الطامحين، إذا ما قورنت بغيرها من أماني الناس آنذاك، وشتان ما بين قوله وقول آخر أظنه زُهَيْرًا المِصْرِيّ (٢) في همة بهيمية منحطّة: من الوافر:

إِذَا مَا كُنْتَ ذَا أَكْلٍ وَشُرْبٍ فَلَا تَطْمَحْ إِلَى نَيْلِ المَعَالِي

إلا أن العبد المؤمن بعد ظهور الإسلام علت همته إلى حد لا يطاول، إلى ما هو أفضل وأجل وأشرف، إلى ملك عظيم ونعيم خالد، في دار الجنة دار المتقين، بقرب الرحمن، وذلك هو المجد والشرف حقاً.

فنلحظ في **نظم كل من امرئ القيس والنابغة** خلوه من اللفظ الغريب والهجين والمتنافر والسوقي المبتذل، مع اشتمال التركيب على السهولة والجزالة والعذوبة، وعليه فلا يكون اللفظ في ميدان الأدب والفصاحة والبلاغة

(١) الزهرة لابن دواد الأصبهاني: ص ١٩٥.

(٢) ينظر حماسة الخالديين بالأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهليين والمخضرمين: ١/ص٤٤، المحقق: الدكتور محمد علي دقة، وزارة الثقافة السورية/ ١٩٩٥م، والدر الفريد وبيت القصيد لمحمد بن أيدمر المستعصمي (المتوفى: ٧١٠ هـ): ٣/ص٢١٨، المحقق: الدكتور كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية-بيروت ط١/ ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م

فصيحا مستقيما موصوفا بكل وصف حسن –سواء تعلق هذا الوصف الجميل بجرسه، أو بصيغته وهيئته (بنيته)، أو بمعرضه مع ما جاوره والتحم به في سياقه، أو بالمعنى الذي يحمله، أو بالدلالة التي يجود بها في معاقد النظم عامة– إلا إذا كان خاليا من عيوب قادحة ابتداء، تعد من الأصول ، وما كان سواها فهو داخل في فلكها بوجه، ووجود واحد منها منقصٌ فصاحةَ اللفظ درجةً في لغة البيان فكيف بها إذا اجتمعت فيه؟!

الخاتمة: وبعد هذه الجولة الماتعة :

–تبين أن (المعيارية اللغوية) هي ابنة (اللغة المعيارية، أو اللسان العربي الفصيح)، أو ما يسمى باللغة الكلاسيكية (القديمة)، وفرع عنها، ومستمدة منها، ودليل عليها، ومستندة إليها؛ وهي تعني الرجوع والاحتكام إلى مجموعة محددة من القواعد والقوانين الموضوعة لشأن من شؤون اللسان عند الاختلاف حول قضية لغوية أو عند تحليل نص والحكم عليه من حيث الصحة والخطأ، أو الجمال والقبح، أو عند تفسير الألفاظ واستنباط الدلالات والفوائد والأحكام في النصوص الشرعية وغيرها...

٢–تبين أن القواعد النحوية واللغوية الصرفية والبلاغية التي وضعها العلماء بعد الاستقراء للفصيح المنقول من لسان الأعراب الفصحاء واتفق عليه الجمهور من المعيارية في الصميم، لأنها تتخذ أساسا للمقارنة والموازنة والوزن والتقييم والحكم في الأمور المعنوية في عالم اللسان(اللغة) وعلوم الآلة عامة..إلا أن المسائل البلاغية (ذات الصفة المعيارية تجوزا) فيها من المرونة ما ليس في غيرها؛ لأن الذوق هو الحاكم فيها غالبا.

٣–تبين أن النظرة البلاغية الذوقية عند فحص النص للحكم عليه تعتمد على توظيف معاني النحو وفنون البلاغة (وهما من المعيارية اللغوية في الصميم) مستصحبةً في المقام الأول في كل ما تعرض له حاكمية الذوق والطبع السليم ومراعاة مقاصد الكلام. والمقدم في عالم الشعر والأدب والفن والبلاغة والجمال هما الطبع والذوق لا المعيار .

٤–تبين أن الذي يقبل من أنواع الانزياح أو المخالفة في البناء الإسنادي الخالي من الصورة البيانية يكون محصورا فيما جاء على وجه الشذوذ أو القلة على ألسنة الفصحاء لا على العموم، وأما ما يسمى بالانزياح أو بكسر المعيار في البناء التصويري البياني في عالم الفن والبيان والجمال في عالم اليوم فدائرته أوسع وأكبر، فيجوز للأديب ما لا يجوز لغيره، فيدخل فيها –

وهو على نمط ما يراه البنيويون وأضرابهم اليوم خروجا عن المألوف من اللغة– قول عبد القاهر: " وضربٌ آخرُ أنتَ لا تصِلُ منه إلى الغرضِ بدلالة اللفظِ وحدَه، ولكنْ يدلُّكَ اللفظُ على معناه الذي يَقْتضيه موضوعُهُ في اللغُة، ثُمَّ تَجدُ لذلك المعنى دَلالةً ثانيةً تَصِلُ بها إلى الغَرَض" يقصد بذلك المعنى الثاني (معنى المعنى) في صوره المجازية والكنائية التي لا حصر لها. وكله يعد من الاتساع في اللغة ما دام جار على سننها العام غير هادم لأصل من أصولها.

–تبين أن الثناء الذي حظي به نظم امرئ القيس (فَلَو أَنَّ ما أَسعى لِأَدنى مَعيشَةٍ...إلخ) حتى عُدّ من أجود ما قيل في الفخر لم يكن من فراغ، بل صدر عن وعي وعلم، فقد تبين أنها يكتنزان من فنون البلاغة الكثير؛ ومن ذلك: جودة المعنى، والانسجام والإطناب بالاعتراض على قول، والحذف، والإيجاز، والطباق المعنوي أو الخفي، وطباق سلب، والإبهام والتفسير على قول، والإظهار في موطن الإضمار، والتوكيد، والجناس .

–لو صح توجيه عمل العاملين (كفاني)، (ولم أطلب) في بيت امرئ القيس إلى كلمة (قليل) على وجه التنازع، مراعاة للمعيار النحوي الصناعي، لزم اجتماع النقيضين، وقد تكلف قوم إثباته، وهو باطل، كما أنه لم يتحقق ركن التنازع الثالث وهو احتياج كل من العاملين للمعمول المتأخر من جهة المعنى، والحاكم هو المعنى لا الصناعة . وهنا تبرز أهمية تغليب النظرة البلاغية الذوقية على المعيارية الصناعية إن دعا الأمر. وكتب النحو طافحة بالشواهد الدالة على أهمية المعنى والمقصد حال التوجيه الإعرابي – وهل البلاغة إلا معاني النحو؟– وتؤكد على أهمية الترابط العضوي بين المعنى والإعراب.

افهرس المصادر والمراجع:

١- إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر، أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الغني الدمياطي، شهاب الدين الشهير بالبناء (المتوفى: ١١١٧هـ)، المحقق: أنس مهرة، الناشر: دار الكتب العلمية، لبنان ط٣، ٢٠٠٦م-١٤٢٧هـ

٢- أسرار البلاغة، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (المتوفى: ٤٧١هـ)، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة

٣- تذكرة النحاة، لأبي حيان محمد بن يوسف الغرناطي (المتوفى:٧٤٥هـ)، تحقيق، عفيف عبدالرحمن، مؤسسة الرسالة بيروت، لبنان، الطبعة الأولى١٩٨٦م،

٤- تاج العروس من جواهر القاموس، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض، الملقب بمرتضى، الزبيدي (المتوفى: ١٢٠٥هـ)، المحقق: مجموعة من المحققين، الناشر: دار الهداية، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

٥- التكرار ، للدكتور، حسين نصار، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م.

٦- الانتخاب لكشف الأبيات المشكلة الإعراب، علي بن عدلان بن حماد بن علي الربعي الموصلي (المتوفى: ٦٦٦هـ)، المحقق: د حاتم صالح الضامن، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م

٧- التعريفات الفقهية، لمحمد عميم الإحسان المجددي البركتي، دار الكتب العلمية (إعادة صف للطبعة القديمة في باكستان ١٤٠٧هـ – ١٩٨٦م)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م.

٨- التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: ٨١٦هـ)، المحقق: جماعة من العلماء بإشراف الناشر، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت –لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م

٩- جمهرة الأمثال، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ)، الناشر: دار الفكر – بيروت ط١٩٨٨/٢م.

١٠- الجنى الداني في حروف المعاني لأبي محمد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله بن عليّ المرادي (المتوفى: ٧٤٩هـ دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ط١/ ١٤١٣ هـ-١٩٩٢م،

١١- حماسة الخالديين بالأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهليين والمخضرمين، المحقق: الدكتور محمد علي دقة، وزارة الثقافة السورية/ ١٩٩٥م،

١٢- الحماسة البصرية، علي بن أبي الفرج بن الحسن، صدر الدين، أبو الحسن البصري (المتوفى: ٦٥٩هـ)، المحقق: مختار الدين أحمد، الناشر: عالم الكتب – بيروت،

١٣- خزانة الأدب وغاية الأرب، ابن حجة الحموي، تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله الحموي الأزراري (المتوفى: ٨٣٧هـ)، المحقق: عصام شقيو، الناشر: دار ومكتبة الهلال-بيروت، دار البحار-بيروت، ط الأخيرة / ٢٠٠٤م

١٤- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، لعبد القادر بن عمر البغدادي (المتوفى: ١٠٩٣هـ)، ت: عبد السلام محمد هارون، الناشر: مكتبة الخانجي القاهرة ط٤/١٤١٨هـ.

١٥- الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (المتوفى: ٣٩٢هـ)، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٤.

١٦- الدر الفريد وبيت القصيد لمحمد بن أيدمر المستعصمي (المتوفى: ٧١٠ هـ)، المحقق: الدكتور كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية-بيروت ط١/ ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م

١٧- دلائل الإعجاز في علم المعاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (المتوفى: ٤٧١هـ)، المحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر، الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة، الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ-١٩٩٢م

١٨- ديوان المعاني، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ)، الناشر: دار الجيل – بيروت (في مجلد واحد)

١٩- ديوان امرئ القيس، امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي، من بني آكل المرار (المتوفى: ٥٤٥ م)، اعتنى به: عبد الرحمن المصطاوي، الناشر: دار المعرفة – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٢٥ هـ-٢٠٠٤ م

٢٠- ديوان طرفة بن العبد، طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد البكري الوائلي أبو عمرو الشاعر الجاهلي (المتوفى: ٥٦٤ م)، المحقق: مهدي محمد ناصر الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٣ هـ-٢٠٠٢ م

٢١- الرسالة-محمد بن إدريس الشافعي-تحقيق، أحمد شاكر-دار الكتب العلمية-بيروت، لبنان-ط١، ١٤١٣هـ.

٢٢- العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (المتوفى: ١٧٠هـ)، المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال

٢٣- سر الفصاحة، أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي (المتوفى: ٤٦٦هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ_١٩٨٢م

٢٤- شذرات الذهب دراسة في البلاغة القرآنية د. محمود توفيق محمد سعد ، ط١/١٤٢٠هـ.

٢٥- شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، علي بن محمد بن عيسى، أبو الحسن، نور الدين الأشموني الشافعي (المتوفى: ٩٠٠هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، الطبعة: الأولى ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م

٢٦- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي ثم القاهري (المتوفى: ٨٢١هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت

٢٧- الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الحسيني العلويّ الطالبي الملقب بالمؤيد باللَّه (المتوفى: ٧٤٥هـ) الناشر: المكتبة العنصرية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ

٢٨- فضائل القرآن، (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الجزء الخامس)، محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي النجدي (المتوفى: ١٢٠٦هـ)، المحقق: عبد العزيز بن زيد الرومي، وصالح بن محمد الحسين، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية.

٢٩- فضائل القرآن، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، الناشر: مكتبة ابن تيمية، الطبعة: الطبعة الأولى - ١٤١٦ هـ

٣٠- فضائل القرآن، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ)، المحقق: د. فاروق حمادة، الناشر: دار إحياء العلوم، دار الثقافة - بيروت، الدار البيضاء، الطبعة: الثانية، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م

٣١- فضائل القرآن، للقاسم بن سلام، أبو عبيد القاسم بن سلام بن عبد الله الهروي البغدادي (المتوفى: ٢٢٤هـ)، تحقيق: مروان العطية، ومحسن خرابة، ووفاء تقي الدين، الناشر: دار ابن كثير (دمشق - بيروت)، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ- ١٩٩٥ م

٣٢- الفوائد، الضيائية ، شرح كافية ابن الحاجب لنور الدين عبد الرحمن الجامي (ت:٨٩٨ هـ) دراسة وتحقيق : الدكتور أسامة طه الرفاعي

٣٣- الكتاب، عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب سيبويه (المتوفى: ١٨٠هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨ هـ-١٩٨٨م

٣٤- الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي (المتوفى: ١٠٩٤هـ)، المحقق: عدنان درويش - محمد المصري، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، سنة النشر

٣٥- لباب الآداب لأبي منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي النيسابوري: ص١٠٦، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان، ط١/ : الأولى/ ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م ،

٣٦- اللآلي في شرح أمالي القالي لعبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري ، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان ط١/ ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م

٣٧- لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (المتوفى: ٧١١هـ)، الناشر: دار صادر - بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤هـ

٣٨- معاني القرآن، أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء (المتوفى: ٢٠٧هـ)، المحقق: أحمد يوسف النجاتي، محمد علي النجار، عبد الفتاح إسماعيل الشلبي، الناشر: دار المصرية للتأليف والترجمة- مصر،ط١.
٣٩- معجم اللغة العربية المعاصرة، د أحمد مختار عبد الحميد عمر (المتوفى: ١٤٢٤هـ) بمساعدة فريق عمل، الناشر: عالم الكتب، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ- ٢٠٠٨ م
٤٠- معجم ديوان الأدب، أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم بن الحسين الفارابي، (المتوفى: ٣٥٠هـ)، تحقيق: دكتور أحمد مختار عمر، مراجعة: دكتور إبراهيم أنيس، طبعة: مؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر، القاهرة، عام النشر: ١٤٢٤ هـ-٢٠٠٣م
٤١- مفاتيح الغيب، = التفسير الكبير، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠هـ
٤٢- مفتاح العلوم، يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي أبو يعقوب (المتوفى: ٦٢٦هـ)، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الثانية، ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٧م
٤٣- موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد بن محمد صابر الفاروقي الحنفي التهانوي (المتوفى: بعد ١١٥٨هـ)، تقديم وإشراف ومراجعة: د. رفيق العجم، تحقيق: د. علي دحروج، نقل النص الفارسي إلى العربية: د. عبد الله الخالدي، الترجمة الأجنبية: د. جورج زيناني، الناشر: مكتبة لبنان ناشرون – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٩٩٦م.
٤٤- نقد الشعر، قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي، أبو الفرج (المتوفى: ٣٣٧هـ)، الناشر: مطبعة الجوائب – قسطنطينية، الطبعة: الأولى، ١٣٠٢هـ
٤٥- موقع الوراق على الشبكة العنكبوتية، والمكتبة الشاملة .